

أشكال تحرر الهوامش – المرأة أنموذجا – في روايات ديهية لويز

From librate the margins –women as models- from the perspective of novelist louiz

* ليلة أجدود

Adjaoud lila

جامعة مولود معمري ولاية تيزي وزو الجزائر

University of Tizi Ouzou- Algeria

lilaadjaoud2@gmail.com

تاريخ النشر: 2020/09/15

تاريخ القبول: 2020/03/04

تاريخ الإرسال: 2019/12/07

ملخص البحث

تعد الدراسات التي تحدّثت حول شؤون المرأة في تزايد مستمر لكنها من حيث المضامين ركزت على دونيتها مقارنة بالرجل، باتخاذ مجموعة من الأوصاف الاجتماعية والثقافية، و تجلّى ذلك في تمثيلات صورة المرأة الجزائرية في الروايات الجزائرية، لكن ذلك لم يمنع من ظهور أفلام روائية معاصرة رفضت الدور الثابت لها، أمّا نحن سنقف على روايات ديهية لويز، التي أثبتت أن المرأة يمكن أن تخوض في تجارب عدة منها السياسة، والتاريخ، كما وقفت على مجموعة من الأساليب التحررية منها: الانتقام من الرجل، التدخين والخمر، التمرد السياسي، التحرر الجنسي وغيرها. الكلمات المفتاح : امرأة، هامش، تمرد، أشكال التحرر، اثبات الذات.

Abstract :

Prepare studies that talked about women s affaire but constantly increasing in terms of content she focused on her inferiority to the man to take a range of social and cultural description , it was manifested in the representations of the of Algerian woman in the representation of the image of Algerian women but that did not prevent the emergence contemporary fiction pens she refused her fixed role. We will stand on dyhia louiz novel s that proved that women can fight in many experience, including politics and history it also stood on a set of liberal methods of which, revenge on man, smoking and alcohol, political insurrection sexual emancipation and other

Keywords: The font ty margin ;rebellion woman ;forms of emancipation .self prove

ليلة أجدود * lilaadjaoud2@gmail.com



1. مقدمة:

إن الأهمية التي أولتها الدراسات المعاصرة للمرأة العربية، لم تشفع لها من الأوصاف الدونية التي ظلت لصيقة بها، إلى أن برزت مجموعة من الأبحاث والدراسات، التي أثبتت فاعليتها في قضايا عدّة منها الاجتماعية والسياسية والتاريخية، وأبرزها دراسات عبد الوهاب المسيري التي أثبتت فاعلية المرأة سياسياً، خاصة وأنّ الواقع يقول بأنّ كل المهمشين والمنبوذين، على وجه الأرض يسعون إلى تحسين أوضاعهم في مختلف مجالات الحياة، لأنّ الذات البشرية تسعى دائماً نحو المركز أو على الأقلّ ترفض الهامش، وأكدّ المتخيّل الروائي الجزائري على ذلك من خلال روايات: محمد مفلح وأحلام مستغانمي وربيعة جلطي وغيرها، إذ تراوحت فيها شخصية المرأة بين الخضوع والتحرّر، بطرق وأساليب كثيرة، منها: التحرّر بالسفر إلى المدينة، وتغيير الاسم الشخصى والهتاف وإثارة غيرة الرجل وطلب العلم والسعي إلى المناصب... الخ، لكنّ الملاحظ على روايات ديهية لويز أنّ شخصية المرأة فيها، اعتمدت على مجموعة من الأساليب المغايرة لإثبات الذات، التي لم يسبق للمتخيّل الروائي أن طرحها، كالتشبّه بالرجل، والتمرد السياسي والخيانة الزوجية، وسنحاول أن نبين ذلك بتحليلنا للروايتين: "جسد يسكنني" و"سأقذف نفسي أمامك".

أولاً- تقويض صورة الرجل والمرأة في روايتي "جسد يسكنني" و"سأقذف نفسي

أمامك".

يعرف التقويض بأنّه هدم القواعد الثابتة، التي كانت غير قابلة للتغيير، ويعدّ هذا المفهوم نابعا من سيطرة المستعمر حتى بعد خروجه، وعمل على تقوية أسلوبه لسبب واحد وهو تفكيكه للقيم في البلدان العربية والتأسيس لاستعمار ثقافي جديد،¹ أمّا موضوعنا نحن فهو تقويض صورة الرجل أو ما يمكن القول عنه بنهاية صورة الفحل، فمن خلال قراءتنا لروايتي ديهية لويز نطرح السؤال: هل نشهد حالياً نهاية الفحل؟ خاصة بعد تصاعد أزمة الثقافة، فقد تساءلت كاتيرين كودنز عن ظاهرة تعري الرجل، كسبب للبحث عن تأمين للعيش، كما تساءلت عن ضياع ملامح مجموعة من الوجوه الفنية بين الأنوثة والذكورة، في مجموعة من الأفلام السنمائية،² وهذا دليل أنّ صورة الرجل بدأت تخرج عن المتخيّل المتعارف عليه، كما تميّزت صورة المرأة في أعمال ديهية لويز بخلخلة الثوابت، باعتمادها على إستراتيجية هدم المؤلف، باتخاذها مجموعة من الأساليب منها:

تقويض مؤسسة الأسرة والزواج التقليدي، بالهروب من البيت الزوجي، بحجة غياب رابط الحب مع الزوج، لتحزّر جسدها من رابط الأمومة التي لطالما كان من المقدّسات سعيا وراء اللذة والمتعة في فضاء المدينة، ويظهر ذلك في احتقارها لزوجها، بسبب عدم توافق المستوى العلمي، قائلة في رواية "جسد يسكنني":

"لم أصدّق أن حسين قد يفكر يوما في الزواج من فتاة تدرس بالجامعة، ذلك الفلاح البسيط الذي لم يستطع أن يكمل دراسته... ثم أن يختارني أنا أمر غريب، يعلم أنني لن أنزل إلى مستواه، لن أرضى بفلاح زوجا لي أشاركه أفراحي وأحزاني لما بقي من حياتي".⁴³

الملاحظ أن الروائية تناولت موضوعا جديدا متعلقا بالفتاة الجامعية والزواج القروي، إذ طرح المستوى الدراسي إشكالية بالنسبة إليها خاصة مع دخولها الجامعة، فالرجل الريفي الفقير لم يستحب لتطلعها، لتجد نفسها تطلب الطلاق، وتتخلّى عن ابنتها لتصبح امرأة شاذة، مقارنة مع مثيلاتها في المجتمع، وعليه قدّمت الروائية، الوجه المرعب للمرأة الرافضة للقيم، من منظور المجتمع القروي خاصة، حين يتعلّق الأمر برفض القيام بواجب الأم. وتجسّد ذلك في قول شخصيتها البطلة:

"كان حسين مندهشا أو حتى مذعورا من اقتراحي، لم يتصوّر لحظة أنّ الجسد الذي عشقه تكون مواقفه مرعبة إلى هذا الحدّ، أية امرأة تتخلّى عن فلذة كبدها بطريقة فضيحة كهذه (...). على الأرجح بالنسبة لك، سيكون رائعا أن تتربّي مع امرأة تعتقد فيها أمك، وتحببها علي هذا الأساس أما لنفسي، فاخترت النار التي تحرق جسدي الذي رفضك. إن كنت سأجد أعدارا لنفسي، فسأقول أن أحلامي وطموحاتي كانت مسيطرة تماما على تفكيري وعطلت لفترة من الزمن حواسي".⁵

إضافة إلى ما قلناه، فالروائية أقحمت المرأة في المجال السياسي الذي كان حكرا على الرجل، لتعرض لنا أسباب دخولها إلى عوالمه التي كانت حكرا عليه، إذ رفضت شخصيّة، مريم في رواية "سأذف نفسي أمامك" طابع الخضوع، للسياسة الجزائرية الرسمية، لتبحث عن هويتها الضائعة، وسط سراديب الإقصاء والتهميش، بالصراخ في شوارع بجاية، والمشاركة في المظاهرات المتعلقة بالربيع الأمازيغي إلى جانب الرجل، لسنة 2001، ولعل الروائية حفرت في أعماق المجتمع لتقدّم للقارئ أسباب اندفاع الذات الأنتوية نحو التفرد، وطرق أبواب الفتنة لتأكّد أن المعاناة الأسرية

كظاهرة طلاق الوالدين، والخيانة الزوجية، والعنف الأسري من شأنها أن تجعلها تخرج عن عاداتها وتقاليدها، لتتفكك عن الحرمان، برفع راية التمرد، والانزلاق نحو المحذور كالتدخين، والزنا، شرب الكحول، و التمرد السياسي، حيث أن شخصية مريم بحثت عن ذاتها الصائغة باستخدام أسلوب الرد بالمعارضة.

تعدّ إشكالية الذات من القضايا المعاصرة التي، اهتمت بها الدراسات الثقافية التي تناولت موضوع الهامش، إذ إنّ الردّ بالمعارضة واحدة من الآليات التي تمكّن بها المهتمّش تفكيك المركز، وإعادة الاعتبار لنفسه، فقد طرحت الروائية موضوع الانتقام من الرجل كأسلوب جديد للمقاومة، حيث انتقلت شخصياتها من الزوج الخائن بالأسلوب نفسه، إذ أقحمت شخصية إيناس نفسها في رواية "سأقذف نفسي أمامك" في دائرة الإجرام السياسي لاسترجاع الشرف المفقود بقتلها لشروطي اغتصبها، كما ركزت الروائية على موضوع جديد تمثّل في: التشبه بالرجل كأسلوب جديد لإثبات الذات، وتجلّى ذلك في شخصية مريم التي قرّرت التدخين بسبب معانها مع والدها المتسلط، كما تجسّد ذلك لدى شخصية الأمّ التي اختارت الخمر لنسيان ابنتها التي تخلّت عنها بسبب رفضها لمفهوم الزواج التقليدي، في رواية "جسد يسكنني".

فالملاحظ على روائي ديهية لويز أنّها وقفت على مجموعة من الأساليب الجسدية التي منها التشبه بالرجل، لأن ما تعانیه ليس مجرد تمهيش متعلّق بكونها من الدرجة الثانية، تؤدي الواجبات المنزلية إنما جمعت الروائية في أعمالها هذه مجموعة من الشخصيات الشواذ، التي لم تركز عليها الرواية الجزائرية من قبل كونها اتخذت أسلوب الوصف العادي للمرأة في الحياة اليومية، مركّزة على العام وليس الشاذ والنادر، مثلما فعلت الروائية .

1: المرأة والسياسة في رواية "سأقذف نفسي أمامك":

رغم التدخّل المتواصل للمرأة في التاريخ الجزائري، منذ ثورة التحرير بصعودها إلى الجبل، وتكليفها بالتمريض والإسعافات الأولية للمجاهدين، وكذا غسل ملابسهم والتكفّل بشؤون الطبخ، إلّا أنّ الدراسات لم تتبّع هذه القضية، ولم تنصفها فنجد الأبحاث التي أقحمتها في الثورة التحريرية والسياسة الجزائرية نادرة جدا، تقتصر على دراسات يمني العيد، ومجموعة من الإشارات لمجموعة من الروائيين أمثال: آسيا جبار، زهور ونيسي، وعليه فإن ديهية لويز من الأعلام الروائية، التي خاضت غمار التحريب في موضوع المرأة والسياسة، وإن لم تكن تتحدّث عن

تفجيرات الثورة، لكنّها أفرمتها في ثورة جديدة مقترنة بالتعدّد السياسي والمجازر الدموية التي أسفرت عنه، من خلال شخصية **مريم** التي شاركت في المظاهرات الطلابية، حول قضية بقيت معلقة إلى وقت قريب وهي القضية الأمازيغية.

إنّ التنشئة الاجتماعية والسياسية هي مهمة متواصلة، خاصة في البلدان التي خرجت من استعمار طويل، وهي "عملية تُكسب الفرد من خلالها، وبصورة تدريجية كيانه الشخصي، بما يعطيه القدرة، على التعبير عن ذاته، وكيفية تحقيق مطالبه، ويركز هذا الاتجاه على التحفيز على بناء ثقافة جديدة (تعديل الثقافة السياسية) في إطار جهود وخطط التنمية الشاملة.⁶ لكنّ المجتمع الجزائري عمل على تنشئة الرجل سياسيا ولم يفعل ذلك مع المرأة، لأنّ مسارها أخذ طابعا ثابتا متعلّقا بمفهوم الأوثنة والخضوع والحفاظ على الشرف، خاصة حين يتعلق الأمر بالشخصية المثالية للأنثى الجزائرية، ومسألة خروجها عن هذه المحدّات يجعلها تتعدّى الحدود الحمراء، لكن الروائية اخترقت المألوف، بتبنيها لطابع التمرد والتقويض الذي بدأ يتخلل الرواية المعاصرة منذ أواخر الستينيات، تأثرا بالمشهد الثقافي العالمي، كما تبنت طابع الهدم والتفكيك، بحديثها عن مشاركة المرأة في المسارات الاحتجاجية السياسية، التي يُقصد بها رفض المشابهة والمماثلة و الخروج عن المألوف، بحيث رفعت شعارا يتباهى بقضية سياسية مشوهة بالحماص، بالتعبير عن المخالفة والتقد للتشكل الاجتماعي والسلطوي القمعي، الذي فرضته القطاعات المهيمنة في المجتمع.⁷ ولعل الاختلاف الذي اتّسمت به المرأة في روايتي **ديهية لوي** عن المحدّات العامة تمثّلت في:

تحول صوت المرأة من التهميش الاجتماعي إلى التمرد السياسي، لأنّها أصبحت تلعب دورا بارزا في السياسة الجزائرية المعاصرة، بتواجدها في المناصب الرسمية، إذ يعد إقحامها في العمل السياسي جزءاً من حقوقها، والتي نبعت من زيادة فرص التعليم، في ظلّ التطور الاجتماعي والثقافي، والإرادة السياسية القوية لتعزيز مكانتها في المجتمع، لأن إشراكها في صنع القرار، هو تحدّ في حدّ ذاته، أمام العوامل المجتمعية، والثقافية التي طالما وقفت كعراقيل، أمام تمكين المرأة سياسيا، وبناء على هذا الأساس عملت الدولة الجزائرية على التوقيع والمصادقة على الاتفاقيات والمعاهدات في مجال الاهتمام بالمرأة وجعلها كشرط حقيقي في الحياة السياسية.⁸ وبناء على هذه القرارات الجديدة تمكّنت المرأة من تعزيز إرادتها في صنع القرارات، بما في ذلك الدفاع عن الهوية اللغوية، بالمشاركة في المظاهرات إلى جانب الرجل لترسيم اللغة الأمازيغية المعيّبة، والجدير بالذكر،

أنّ شخصية مريم في رواية "سأقذف نفسي أمامك"، طرقت أبواب الشّارع كونه فضاء للاحتجاج، وقوّضت تقاليد المجتمع، بتمردها على والدتها الرافضة لمشاركتها في المسيرات في قولها: "منذ متى تشاركين في المظاهرات وسط العشرات من الشبان؟".⁹

وقع اختيار الروائية على فضاء الشّارع، لتبرز قصصه الخفية و مضمراته، والجدير بالذكر أنّ الهامش الجغرافي أصبح من المواضيع الرئيسية في الرواية المعاصرة، كما وقفت على أسباب تمرّد المرأة، لأن مريم المتمردة السياسيّة هي ضحيّة ذكريات الاغتصاب الجنسي التي رفضت الخروج من ذاكرتها، وبذلك اختارت الشّارع لتنفس عن المكبوت، وتثبت جدارتها كامرأة، وعليه يمكن القول إنّ صوت الهامش هو صوت معقد مليء بالذكريات، والأوجاع وليس كلّ دخول للمرأة في عوالم السياسيّة يعود إلى التّبذ والحرامان، لكنّه قد يحمل قصصا خفيّة تستدعي التّحليل و" الاحتفاء بالمختلف والمغاير، مكّن الباحثين من استدعاء الهامشي إلى الفضاء العمومي، أو ساحات التفكير والنقاش، ومثلما أوردناه، فيما يتعلق ببحوث التاريخ الجديد، أو إسهامات مفكري ما بعد الحداثة، والدراسات ما بعد كولونيالية...وهي تحاول أن تجعل ذلك الصوت المكتوم مسموعا، صوت الهامشي الذي لا يسمع جيّدا، يسمع كي تتزحزح وضعيته قليلا، لربّما تصل للمتن أو المركز"¹⁰.

يعدّ صوت الهامش مزدوجا في الرواية، بين الضّعف والقوّة، لأنّ الساردة ركّزت على صورة المرأة، بين الاعتراف بانتهاك حرمة الجسد، والرّغبة في الخروج إلى الشّارع والمشاركة في القضايا السياسيّة إلى جانب الرّجل، أمّا عن الأسباب التي جعلتها تقدم على ذلك فتمثّلت في فكرة التّهميش بحدّ ذاتها، حيث إنّ معاناتها كامرأة، جعلتها تترجّل، فالكبت عندها ولّد الانفجار، وبذلك رأت أنّ الشّارع هو من سيرجع لها ذاتها وكيّنونتها، فتقول مريم مواجهة والدتها والعالم الثّالث الذي قيدها في ثنائيّة البيت والأسرة:

" هذه هي الهفوة التي نرتكبها نحاول التستّر بصمت الجبان، ونقول إنّ الأمر لا يعيننا (...). لذلك مازلنا نتخيّب في العالم الثّالث (...). مازلنا نرى الجثث تسقط أمامنا وكأن شيئا لم يكن، وكأنّ هذه الدّماء ليست جزائريّة تسيل دون أن نعرف السبب، ولا من وراء هذا الخراب (...). لو أنّك كنت للحظة واحدة مكان أولئك الأمّهات اللواتي يرثين أبناءهنّ، لكنت الأولى في تلك الصّفوف تطلين ثأر ابنك."¹¹

بهذا يمكن القول، إنّ شخصية مريم تحوّلت من الجسد المقموع جنسيًا، واجتماعيًا إلى الجسد المتمرد سياسيًا، فيرى الباحثون حول الهامش في الدراسات السوسيو اجتماعية أن الهامش مرتبط دائما بفكرة الإقصاء، والإقصاء يولد القوة لأنّ المهيمن صاحب نسق قيمي، يتحدد وفقه ويحدد مواقع بقية الدّوات الاجتماعية الأخرى منه، ممّا يعني أن درجة الهامشية لدى المهيمن عليه، مرتبطة في مدى نجاح المهيمن في إقصائه من النسق كليًا أو جزئيًا، مشاركة الهامشي في هذا النسق متوقّفة على الصّورة التي يقدّم فيها ذاته، فهو إمّا مسلّم بالقضاء المسلّط عليه، وإمّا هو ساع كمقصى إلى أن يعيد بناء ذاته، بما يضمن له فرص وجوده، في معادلة الصّراع.¹² وعليه فإنّ شخصية مريم، اتّخذت موقفًا تقويضيًا ما يعني أنّها هامش اجتماعي قرّر المواجهة السياسية لإثبات الدّات المعيّبة، فالمهيمن حسب الرواية هو المجتمع المحافظ الذي أملى عليها الصّمت، لكنّ هذه الحالة تحوّلت إلى رغبة دفينية في المشاركة في قضية الهوية التي ستسمح لها لاحقًا بفكّ قيود التهميش بأنواعها، فتقول:

"ألنفت إلى الطريق الوطني، رقم 26، البعيد بضعة أمتار عن منزلي، أصوات السيارات والشاحنات لا تهدأ فيه. تعود إلى ذاكرتي الآن تلك اللحظة التي لم نصدق أنها ستأتي يوما، فلم أكن أستطيع أن أفوتها؛ لأنها اللحظة التي كانت تكتب التاريخ بأحرف من الدم... فما كنت لأعيش على الهامش بينما يشق الآخرون الطريق إلى مستقبل أفضل، كنت أريد بدوري صناعة التاريخ... فلم تكن الأبواب تسمح للمرأة بالدخول عبرها إن لم تكسرهما"¹³.

وبهذا ندرك أنّه لا يمكن الفصل بين الاجتماعي والسياسي، إذ إنّ الثقافة والمجتمع لا يسمحان للمرأة بطرق أبواب السياسة لأنّها لطالما كانت حكرا على الرجل، لكنّ الروائية جرّبت المتخيّل المختلف، أو تقويض صورة المرأة، بتحويلها من الجسد الاجتماعي إلى الجسد السياسي، الذي أراد استرجاع المسيرة التضالية للمرأة الجزائرية، التي شاركت في ثورة التحرير الكبرى، وعليه يحقّ لها أن تكون كيانا سياسيًا معاصرا، بمشاركة بتحديد هويتها ولغتها.

2 : تقويض مفهوم الأم في رواية "جسد يسكنني":

لطالما استحوذ الرجل على حرية المرأة وميلادها ومصيرها، فهو الذي يحدّد إمكانية خروجها من بيتها، واختيارها للشريك الآخر، لكن المرأة في أعمال ديهية لويز هدّمت صورة الرجل، وسيطرته

الاجتماعية على حياتها، لأنها قررت أن تتخلى عن أدوارها الثابتة، حيث تخلت عن ابنتها في رواية "جسد يسكني"، بسبب مشاريعها التي تتنافى مع مفهوم الأسرة، لأنها رأت في المدينة جنتها الموعودة، إذ أعلنت تشبّها بالمرأة الغربية، كما يعدّ موضوع المدّس من المواضيع الذي التي أفردت لها الرواية المعاصرة حيزاً كبيراً، بسبب التأثيرات العالمية على الشخصية الجزائرية.

تعرّضت الروائية إلى حياة المرأة المهمّشة، وأسباب دخولها لعالم الإباحية، وإن كان التهميش لا يؤدي دائماً إلى الانحراف، لكن مجموعة من الشخصيات اختارت التلاشي في ملذات الجسد، وذلك من خلال وصفها لـ"حياة العاهرات وأنماط سلوكهنّ، ومن ثمّ من خلال اتّساع بسيط توحى بتعبير شبيقي صريح ومدّس (...). ومن هنا يمكن تقديم تعريف للإباحية بأنها فعاليات محظورة يراد منها إثارة الرّغبة الجنسيّة.¹⁴ فقد رفضت المرأة في رواية "جسد يسكني" دور الأمّ، لتطرق أبواب المدّس في مدينة الجزائر العاصمة، كما طرحت الرواية موضوعاً متعلّقاً بالساعة الزاهنة، تمثّل في الانتقال من تهميش المرأة إلى تهميش الرجل، لأنّ الذات الأثوية في الرواية أرادت أن تذوّق طعم الشذوذ والحريّة غير المقيدة، وعليه رفضت البقاء في بيتها الزوجي وقرينتها الشعبيّة، رغم حملها من ذلك الرجل الذي لم ترض به زوجها لها، لتبدأ حياتها في المدينة بافتتاحها صالوناً للتجميل، وجرّبت العلاقات الجنسية المحرّمة باسم الحب. وفي أواخر أيامها تركت رسالة إلى ابنتها التي تخلت عنها بمحض إرادتها، وأخبرتها بحقيقة الأمّ الثائفة بين سراديب الظلام والخيبة، في قولها:

"كم أُرغب يا أحلام أن تتمكّني من قراءة كتاباتي إليك، أن تتفحصيني بعينيك الفاتنتين آهاتي وكلماتي، كم أريد أن تعرفي، أنّ هناك شخصاً آخر في بقعة ما من هذا العالم، يفكر دائماً بك، ويتحسّر كل يوم على فقدانك. كم أتمنى أن تعرفي أنّي أمك التي حملتك في جسدك، لكن أخشى أن ترفضيني، حينها لن تكون لي القدرة على احتمال الألم، مهما قرأت من كتب علم النفس للتحكّم بالذات، حينها لن يفيدني لا جاقو ولا أخصائيين بالأعصاب."¹⁵

وبهذا يتجلى اعتراف المرأة المعاصرة بخيبتها، من تحولات العالم الجديد، حيث إنها لم تدرك طموحاتها، ولم تحافظ على عاداتها وتقاليدها وبقيت بين الأمرين حائرة وخائفة من مصيرها المجهول. الملاحظ من خلال هذه الرواية، أنّ الساردة ركّزت على كشف المسكوت عنه، حيث أنّ

المرأة الأمّ عادة ما تتعد عنها سهام الشبهة، لأن غريزة الأمومة تكون مسيطرة عليها، وهذا مالا ينطبق على أعمال ديهية لويز، حيث إنّ المرأة طرقت أبواب الرّنا متخلية عن واجب الأمومة، هذا الواجب الذي لطالما بقي مقدّسا في المتخيّل الرّوائي الجزائري، كونه ظل ميزة تميّز بها المرأة الجزائرية، لتخرجنا الساردة إلى المسكوت عنه، حيث انتقلت الأدوار من تهميش المرأة إلى تهميش الرّجل، بخيانتة أولا، وإجباره على القيام بواجباتها، حيث أخذ الرّجل في رواية "جسد يسكني" دور الأم والأب، الذي اعتني بابنته بعد هروب زوجته ووقعها فريسة سهلة بين أحضان الرّجال في المدينة، كما أنّها اخترقت الثوابت بفقدانها مفهوم الشرف في العادات والتقاليد الجزائرية. وبذلك سنحاول الوقوف على صورة الرّجل أو الأب في الرواية التي أخذت منحى غير مألوف، إذ مثل الرّجل دور الضحية بين يدي المرأة التي اخترقت العادات والتقاليد، لأنّها بادرت بتطبيقه رغم أن العادات والتقاليد الجزائرية لا تسمح بذلك، خاصة وإن كان زوجها رجلا غير متسلّط مثلما هو الحال في الرواية، كما نجد المرأة تنتقم من زوجها على خياناته الكثيرة فتبيع جسدها في رواية "سأقذف نفسي أمامك"، رغم أنه ساعها على فقدان عذريتها ليلة زواجها ليمثل الرجل بذلك دور الضحية الذي فقد شرفه بسبب زوجته غير العذراء، وفي الأخير ينتقم منها بالاعتداء على ابنتها جنسيا، وبهذا سنحاول الوقوف على تمثّلات صورة الرجل (الأب) التي أخذت طريقا مضطربا بين كونه ضحية للمرأة، وكونه رجلا متسلطا سعى للانتقام لشرفه المفقود بسبب انحرافها وخروجها عن القيم الجزائرية.

ثانيا: تحولات صورة الرّجل (الأب) في أعمال ديهية لويز الرّوائية:

لقد كان الباحثون والنقاد يميلون إلى قراءة صورة الرّجل و الأب من خلال التّموذج الرّوائي على أنّه يمثّل المركز، بينما هناك آخرون يرون أن صورة الرّجل يصنعها العصر والتّقافة حيث "نجد يميني العبد تميل إلى قراءة هذا الاختلاف باعتباره اختلافا قوامه الواقع التّقافي في تاريخيّته، ويتبين ذلك من خلال موقع المؤلّف ورؤيته، وما لذلك من أثر يتمثّل في منظور الرّوائي وعامله"¹⁶ فقد تغيّرت صورة الأب كما هو معتاد في الرّواية الجزائرية، من عصر كان فيه مركزا إلى عصر أصبحت المرأة تسعى إلى تكسير هيمنتها، إذ إنّ الأب عُرف بأنّه متشدّد في قضايا الشرف، لأنّ هيئته تتلاشى مع فقدان زوجته أو ابنته لشرفها، ولهذا برّر لنفسه أعمال العنف وحرمان المرأة من الخروج من عتبة المنزل بسبب خوفه على طهارتها، لكنّ الأب في رواية "سأقذف نفسي أمامك"

اختراق المعتاد، لأنه هو من بادر بفعل الاعتداد الجنسي على الابنة، إذ إنّ مريم لم تكن على علم بأنّه ليس والدها الحقيقي، وعليه مثّلت الحادثة بالنسبة لها اختراقا على مستوى القيم، وهذا ما اعترفت به في نهاية الرواية، التي أخذت منحى وجودي، لأنّها تساءلت عن مصيرها بين حقيقتين، الأولى وجودها العشي لأنّها ثمره حبّ محرّم بين أمّها ورجل عاش حياته في الغربة، والثانية، نشأتها في عائلة وهمية إذ أنّ الرّجل الذي خالته والدها، عاش حياته وهو متعطّش لجسدها الذي مثّل الخطيئة التي اقترفتها زوجته.

وإذا عدنا إلى المتخيّل الرّوائي الجزائري نجد أن هذه الرواية شكّلت اختلافا ثقافيا واجتماعيا مع المعتاد، خاصة فيما يخص مجموعة من المفاهيم كمفهوم الأب والأم والشرف، الذي اخترقته المرأة وليس الرّجل، وإن فعل ذلك فبسبب رواسب الخيانة، التي بادرت إليها المرأة، والجدير بالذكر أنّ هذا الموقف لا يمثّل تبريرا لأعمال الرّجل، لكنّ الرواية كشفت عن المسكوت عنه، إذ إنّ أعمال العنف التي يمارسها الرّجل على المرأة قد تكون بسبب القهر ومفهوم الشرف الذي لا يتلاشى مع مرّ العصور حتّى وإن أبرزت الثقافة تحوّلاتها، لكنّها تظلّ وهمية لأنّ قضايا الرّجل تظلّ راسخة، فجسد المرأة من الثوابت التي لا يسمح باختراقها، حتّى وإن ثبت عنه ذلك.

إنّ الرّجل في هذه الرواية اختراق العادات والتقاليد محاولا الوصول إلى الشهوة الجنسيّة مع ابنته مريم، أمّا الأم فهي بدورها طرقت أبواب الشّدوذ، ودخلت إلى عالم الفتنة والدّعارة، لتسقط فريسة في يد رجل إرهابي اعتدى عليها جنسيّا، وقد كان الجسد والجنس هو شفاؤها للتحرّر من زوجها، الذي اعتدى على ابنتها، رغم أن ذلك يمثّل بالنسبة إليه فعلا انتقاميا على تمهيشه، وتواصل الأم مسارها التحرّري الذي تمثّل في الانتقام من الرّجل بالجسد حتى بعد موته بمرض الإيدز، ليمثّل الشرف في الرواية أكثر هاجس، تسبب في تفكيك مفهوم الأسرة المعاصرة، حيث أنّ العيش على النمط الأوروبي بالتحرر من قيود العذرية، يتسبب في عقدة لا يشفى منها الرّجل. أثبتت ديهية لويّز في الرواية أنّ صورة الأب أو الرّجل تتغيّر إذ أن تغيّرات الزمن والعصر سمحت للرجل بتقبل المرأة دون عذريّة، كما تقبل الرجل ابنة ليست من صلبه ووافق على إبقاء ذلك سرا بينهما، لكن هذا التقبل بقي جزئيّا، وتجلّى ذلك في الشهوة والجسد، حيث أن جسد مريم بقي عالقا في ذاكرته، لأنّه مثّل الخيانة، و بعد بلوغها أصبح جسدها رمزا للانتقام من الرّجل الأوّل في حياة زوجته، وعليه فإنّ الاعتداء على مريم مثّل نقطة اللقاء بينه وبين خصمه، ويتجلّى ذلك في

قول مريم: " بعد أكثر من ثلاثين عاما أكتشف أنني قضيت عمري كله في كذبة، لأكتشف اليوم فقط أنني ابنة غير شرعية لحب لم يقدر له العيش طويلا، إني ابنة رجل لن ألتقي به أبدا لأنه في عداد الأموات... أكتشف بعد كل هذا العمر من هو والدي الحقيقي، وأن ذلك الرجل الذي تعلقت به كل هذه السّنوات لم يكن سوى زوج أمي، وأنه كان يعرف أنني لست ابنته لذلك كان يعاملني بتلك الطريقة، لأنني أذكره دائما أنه تزوج من امرأة كانت لغيره، وينتقم منها عن طريقي أنا. " ¹⁷

بهذا تجلّت ازدواجية الحياة بين الواقع والترسبات الثقافية، التي لا يبرأ منها الرّجل حتّى وإن تصالح ظاهريا مع أخطاء المرأة، لكنّه يبقى ضعيفا أمام ثقافته التي أمّلت عليه تقاليد لا يمكنه الشفاء منها كمفهوم العذرية والشرف، وملكيّة المرأة، ونتيجة ذلك أنّ مريم عاشت ضائعة بين والديها المنحرفين جنسيًا، بسبب خطيئة أمّها، ولتؤكد أنّ الثقافة المعاصرة حتى وإن ادّعت الحرية في ظاهرها، لكنها لم تتخلص من قيودها الرّاسخة حول شؤون المرأة، سنبينّ تسامح مريم مع أخطاء والدها ورفضها لمجون أمّها في قولها: " لو أنّ والدي يرى هذه المهزلة زوجته تخرج ليلا متأنّقة متبرّجة، إلى وجهة مبهمة. " ¹⁸

من أوهام العالم المعاصر، تمركز المرأة على ذاتها، وتقويض مفهوم الأسرة والأمومة، وفي ذلك يقول عبد الوهاب المسيري: " دور المرأة كأمّ لم يعد مهما، ومؤسسة الأسرة أيضا فهي تعدّ عبئا لا يطاق، فقد أصبحت المرأة متمركزة حول ذاتها، مكثفية بذاتها، تود اكتشاف ذاتها وتحقيقها، خارج أيّ إطار اجتماعي، ما يعني أن مقولة المرأة كما تعوّدها التاريخ بدأت تنفكك. " ¹⁹ والجدير بالذكر أنّه من نتائج تقويض مفهوم الأمّ، وقوع صدمات عنيفة في المجتمع، بسبب التصريف الجنسي بطريقة عشوائية، لأنّ الرّجل وإن تأثر بالقيم المعاصرة في تقبله لفكرة فقدان غشاء البكارة وحمل زوجته في ليلة زفافها، من رجل آخر واعترافه بمولودها، إلا أنّ ذلك سيظلّ عبئا ثقيلا سيكلّفه حياته، وحياة أسرته، مردّ ذلك أنّنا أصبحنا نعيش اليوم عصر العدميّة التي يقصد بها استنزاف القيم الوجودية، والثّقافية فيرى نيشه أنّ قوّة العقل أصبحت متعبة ومستنزفة، إلى حدّ تبدو معه الغايات والقيم التي تمّ امتداحها، حتى الآن قدرة وتفقد حظوتها، ويتفكك ائتلاف القيم والغايات، بحيث تدخل مختلف القيم في حرب ضد بعضها. ²⁰ إذ إنّ العصر المعاصر الذي نعيشه اليوم يحمل في جوهره نهاية القيم واستنزاف الثوابت والعادات والتقاليد الموروثة.

تطرق الروائية ديهية لويز إلى موضوع متعلق بالتحويلات التي عاشها الرجل المعاصر بسبب تغييرات المجتمع، حيث انه أصبح اليوم يعيش صراعا ذاتيا وداخليا بين القيم المتعارف عليها، وثقافة المرأة الجديدة التي وقف أماما مصدوما، حيث أنّ الزوجة في رواية "جسد يسكني" بادرت بفعل الطلاق، وبذلك مثل هو صوت الهامش الذي، اهتزت صورته في المجتمع، أما الرجل في رواية جسد يسكني فقد أرهقت كيانه المرأة لأنها ليست عذراء في ليلة زفافها، وكذلك حامل من رجل مجهول، وبهذا يمكن القول أنّ حرية المرأة في الروايتين أخذت منحى تدمي لسلمة الرجل والمجتمع معا، وسبب ذلك أنّها حين أرادت استرجاع جسدها من هيمنة الثقافة، وقعت تحت تأثيرات وهمية مصدرها الإغواء والإغراء الحضاري، وقد ساهمت التحديات المعاصرة في استقطاب المرأة إلى عالم الزيف، ومن أسباب ذلك حسب الأبحاث الغربية أنّه انتشر الاهتمام والبحث في الجسد الإنساني، منذ أواخر القرن العشرين، وساهم التكاثر الواسع والزواج للمصطلحات المتعلقة به، بما في ذلك لغة الجسد، وصورة الجسد، وإدارة الجسد، وعمل الجسد، كما رعت المجتمعات الغربية انبثاق المواقع المكترسة لثقافة الجسد والمتاجرة بها في (الملاعب الرياضية، النوادي الصحية، المنتجعات، المجالات، أفلام الفيديو، والأنظمة لإدارة الجسد وتقويته من خلال (الأطعمة، التمارين، برامج بناء الجسد.²¹ وبذلك أصبحت المرأة هي المسيطرة على ذاتها، من خلال التغييرات الثقافية المعاصرة، كالمشاركة في الرياضة، اتخاذ الحمية الغذائية، رفض الزواج، طلب الطلاق، رفض الأمومة وغيرها من التغييرات الطارئة على ثقافتها وطرق تفكيرها.

الملاحظ من خلال الروايتين أنّ الشخصيات البطلة اخترقت البنية الاجتماعية بإحداث تغييرات على الجسد، الذي اعتاد وضعيّة محدّدة ارتبطت بالثقافة، فقد اخترقت المرأة قواعد المجتمع باستعادة التحكم في جسدها، من خلال حلمها بالمتاجرة بمواد التجميل، وإعادة صياغته شكلا، بعد أن كان مرتبطا بقيم البيت، إذ أصبحت تديره، وترفض القواعد المسطرة له، لكن المشكل المطروح أنّها أخذت تتحرّر تحرّرا سلبيا ذلك في طرقها لأبواب الفتنة والمحذور، كالممارسات الجنسية غير الشرعية، ويتبيّن ذلك في رواية "جسد يسكني" من خلال شخصية الأم التي تخلت عن ابنتها أحلام، وزوجها لتطرق أبواب أخرى تمثلت في الفتنة و التحرر الجنسي، و شرب الخمر ويتجلى ذلك في هذا المقطع الحوارى مع عشيقها الجديد بالمدينة:"

وأنت ماذا تشرب؟

ويسكي مع القلج، سأقدم لك شيئا أحب أن أسميه بخمر النساء، غالبية النساء يفضلنه لذوقه الناعم.

سأقبل ما تقترحه...

احتسيت كأسا بسرعة، فقد بدا كريم مستعجلا. لم نتحدث كثيرا، نهض من مكانه وبدأ يداعب جسدي، أحسسته لطيفا وهادئا. ربما كان الأسلوب العنيف لحسين في الليلة الأولى هو ما جعلني لم أمقته وأنفر منه، أما كريم فيديه ألهبنا الكثير من النساء، ولم أكن أنا استثناء.²²

انطلقت الأبحاث الأولى حول التمرد الجسدي مع الدراسات الثقافية الغربية، التي منها آراء ميشال فوكو عن الجسد والتمرد، فقد تابع فوكو التماذج التاريخية لانضباط الجسد في السجون وغيرها من الأحوال، وأبرز كيف تتحقق المعايير والأعراف الاجتماعية، وتُعاش من خلال الجسد، وركز آخرون على الأجساد العنيدة، أو المفرطة أو التمييزية، كوسائل للمقاومة أو المخالفة السياسية والاجتماعية.²³ فبعد جسد المرأة في الروايتين جسدا عنيدا وتمزيقا لأعراف المجتمع، خاصة في فضاء المدينة، إذ إن المرأة مارست الرفض في فضاءها الشعبي البسيط، لكنها طبقت أشكال الحرية في المدن، وتعود أسباب ذلك إلى حب الطرفين للتسلط، وتعاطي الكحول، وتفوق المرأة على الرجل في عدة مجالات منها الدراسية والمهنية،²⁴ وكذلك الزواج عن غير حب، مع العلم أن الساردة تبنت موقف المرأة المتمردة على شكل مشاهد بررتها الظروف، الاجتماعية والثقافية الطارئة، بما في ذلك موقف الرجل الأبدي من فقدان الزوجة لغشاء بكارتها، الذي تحول إلى عنف لاحق، وكذلك طرح المستوى الدراسي العالي، إشكالية معاصرة بين الرجل والمرأة، حيث إنها لم تتقبل الفروقات العلمية في رواية "جسد يسكنني" مما جعلها تطرق أبواب المحذور بعد مطالبتها بالطلاق.

إن تطالعات المرأة المثقفة قد تكون أكبر من الفضاء الشعبي، وآرائه الاجتماعية والثقافية، لذلك تبدو مواقفها بالنسبة للرجل القروي مرعبة، خاصة حين تتعلق بالمطالبة بالطلاق، والتخلي عن الأبناء بمحض إرادتها. بالتالي يمكن القول أن الروائية قامت بعملية عكسية، حيث أصبح الرجل يمثل الهامش، إذ إن المرأة جعلته يفكر في الموت والانتحار، فهرا على تصرفاتها، وشرفه المفقود، إذ اختار محمد الانتحار في رواية "جسد يسكنني" بسبب اكتشافه علاقات زوجته الجنسية،

وتجلى ذلك في اعترافها بذنوبها في قولها: "ظهرت نتائج التشريح بعد ثلاثة أيام، واكتشفت سبب موته كان قد شرب تقريبا زجاجة الويسكي بعد وضع فيها كمية من السمّ المُركّز، ياه محمد... لماذا اخترت هذه الصّورة البشعة لتموت بها؟ أما كان بإمكانك أن ترحم نفسك وترحميني من هذا العذاب؟... تلومني على خطيئة فعلتها قبلك، لو أنني أعيد الزّمن لمحتوتها من كتاب كنت ستكون صاحبه. كيف لي أن أعرف أن خطيئة مضى عليها أكثر من عام، ستكون سبب ألمك؟"²⁵

خاتمة:

من خلال هذا تجلّى، مفهوم الحرية في الزّمن المعاصر، والخيبة من مخالب المدينة، وأوهام المعاصرة، خاصة وأنّ مجموعة من الشّخصيّات لم تضع خطة منهجية تسمح لها بالحفاظ على مؤسسة الأسرة، لأنّها اتّخذت من أساليب الرّجل في الهيمنة، طرقا منهجيّة، لتصنع ذاتها، ولم تدرك أنّ المجتمع لم يفقد هيئته، لتثبت الروائية بهذا، أنّه لا وجود لمركزين معا، فإذا كان الرّجل مركزا تكون المرأة هامشا، وإذا تحولت المرأة إلى مركز يصبح الرّجل هو الهامش، خاصة إذا تعامل كليهما بأسلوب إلغاء حقوق الآخر. فتحرير المرأة يجب أن يكون باتخاذ أسس منهجيّة، حيث أثبتت الروائية ديهية لويز أن مشروع الذات الأنثوية الفاعلة قائم، خاصة فيما يتعلّق بالمواضيع الإداريّة والسياسيّة، من خلال شخصية مريم التي أكّدت جدارتها بمشاركتها في المظاهرات السياسية، لكن من جهة أخرى فإنّ التحرر الجنسي للمرأة، على طريقة الرّجل من شأنه أن يجعلها تدور في حلقات الخيبة وإنهاء الذات، فالتحرر بالجسد يؤدي إلى انزلاقات خطيرة على المجتمع والأسرة بالنسبة للرّجل والمرأة والأبناء معا. والجدير بالذكر أنّ الروائية حملت على عاتقها التعريف بمفهوم الخيبة الذي تعاني منه الذات المعاصرة بين الرّغبة الدفينة في تحقيق الطموح، وعراقيل المجتمع الذي لم يفقد ثوابته بعد.

هوامش:

- ينظر: ادوارد سعيد، الثقافة والأمبريالية، ترجمة وتحقيق: كمال أبو ديب، ط3، دار الآداب، لبنان، ص15¹2014،

- مَي غصوب، وإماسكليروبي، الرجولة المتخيلة، الهوية الذكرية والثقافية في الشرق الأوسط الحديث، ط1، دار الساقى، لبنان، 2002 ص12 ،

⁴ _ دهبية لويز، جسد يسكنني، ط1، ثيرا للنشر بجاية، الجزائر، 2012، ص 120

⁵ _ نفسه.

⁶ _ قارح سماح، التغيير الاجتماعي والتنشئة السياسية، (دراسة)، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، 2008، ص16

_ ينظر: طوني بينيت، لورانس غروسبيرغ، معجم الثقافة والمجتمع، تر: سعيد الغانمي، ط1، المنظمة العربية للبنان، 2010، ص 54⁷ للترجمة،

_ زهيدة رباحي، ترقية المشاركة السياسية للمرأة الجزائرية في المجالس المنتخبة، بين الضمانات القانونية والمعوقات⁸

العملية، المحلة الجزائرية للسياسات العامة، جامعة الجزائر3، ع9، الجزائر، 2016، ص25

⁹ _ دهبية لويز، سأقذف نفسي أمامك، منشورات الاختلاف، دار التنوير الجزائر، 2010، ص48

⁹ _ هويدا صالح، الهامش الاجتماعي في الأدب، دراسة سوسيو ثقافية، دط، رؤية للنشر والتوزيع، مصر، 2015، ص 26

¹¹ _ دهبية لويز، سأقذف نفسي أمامك، ص50

¹² _ عمر الزعفروري، التهميش والمهمشون في المدينة العربية المعاصرة، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ع 5، المجلد36، الكويت، 2008 ص 185

¹³ _ دهبية لويز، سأقذف نفسي أمامك، ص 46

¹⁴ _ طوني بينيت، لورانس غوسبيرغ، معجم الثقافة والمجتمع، ص 44

¹⁵ _ دهبية لويز، جسد يسكنني، ص 120

¹⁶ _ معنى العيد، الرواية العربية المتخيل وبيته الفنية، ط1، دار الفرائي، لبنان، 2011، ص 218

¹⁷ _ دهبية لويز، سأقذف نفسي أمامك، ص143

¹⁸ _ نفسه ص 40

_ عبد الوهاب المسيري، قضية المرأة بين التحرر والتمركز حول الأنثى، ط2، طبعة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر. 2010، ص 20¹⁹

²⁰ _ فريدريك نيشه، إرادة القوة، محاولة لقلب كل القيم، ترجمة وتقديم: محمد الناجي، دط، إفريقيا الشرق، المغرب، 2011، ص 13

²¹ _ ينظر: طوني بينيت، لورانس غوسبيرغ، معجم الثقافة والمجتمع.

²²_ديهيّة لويّز، جسد يسكنني، ص56

²³_طوني بينيث ، معجم الثقافة والمجتمع، ص244

23-ينظر: آيت حمودة حكيمة، وآخرون، مظاهر وأسباب العنف في المجتمع الجزائري، مخبر الوقابة

والارغنونميا، جامعة الجزائر2، الجزائر، 2011، ص 22

²⁵_ديهيّة لويّز، جسد يسكنني، ص101،100